(٨)

القائد الوطني المخلص..
لا علاقة له برعاة البقر الأمريكان!

.. يقول الجد لحفيده الشـاب مواصلاً سـرد حكاية البطل: الجنرال المنقذ قد يستحوذ على خصومه من المدنيين ويسعى لاكتسابهم فى صفه.. وقاعدته فى ذلك أنهم إذا لم يكتسبوا ميزة القرب منه.. فإنهم حتماً خاسرون بالبعد عنه.. ولابد لهم من التوقف عن مقاومته..

وهناك نوع آخر من الجنرالات المنقذة لبلادها.. نرى الجيوش المدنيين حتى لو كانوا من الخصوم.. ولهذا قامت بعض الدول بتغيير وزارة الحربية وأطلقت عليها اسم "وزارة الدفاع" لأنها كانت ترى أن الجيش وسـيلة للدفاع وليس للهجوم ومن الممكن إسـتخدامه فى البناء والتعمير.. وكان فما مضى وسيلة للتعمير.

وأن خصائـص الجنرال المنقذ الذى يخرج لبلاده فى الوقت المناسـب ويأخذ بيدها من السقوط.. هذه الخصائص قد تبدو مشتركة فيما بينهم.. ولكن هم أفضل من باقى البشر وماذا يجمع بين الاسكندر الأكبر وجوليوس سيزر وهانيبال ونابليون وروميل على سبيل المثال؟.. الحقيقـة أنهم على درجة كبيرة من الإختلاف سـواء من الناحيـة العمرية أو الإتجاهات السياسية وكل واحد منهم له خلفية مغايرة للآخرين.. لكن ما يجعلهم مشتركين فى بعض الخصائص تلك القدرة على وضع إسـتراتيجية متكاملة سواء للهجوم أو الدفاع أو التخطيط المتفق للحروب بأسلوب غير تقليدى.

مـن الأمـور التى تتطلب موهبة مختلفة عن المواهب التى يتطلبها إنقاذ حرب خاسـرة وصلت إلى طريق مسدود لا يعرف أحد كيفية الخروج منه.

وفى هذا الخصوص فإن القادة العظام يبدو الواحد منهم وكأنه يشـبه المهندس المعمارى العظيم فى القرون الوسطى ذلك المعمارى الذى كان قادراً على أن يخطط لبناء تحفة معمارية ضخمـة من لا شـىء، تحفة فنية يعجز عن تخيلها المهنـدس المعمارى الحديث برغم كل ما يملكه من أدوات وتكنولوجيا ودراسـة منتظمة اسـتمرت لسـنوات طويلة متتابعة ولهذا فإن "الجنرال المنقذ" يبدو وكأنه أقرب شـبهاً بالمهندسـين المعماريين الذين لا يعلم عنهم أحـد لكن الجميع يلجأون إليهـم عندما تقع الكوارث أو تحدث الأخطاء فعندما يتم إقامة بناء بطريقة خاطئة أو عندما تظهر الشروخ فى أحد القباب العالية التكلفة أو عندما تفشل إحدى الدعامات الأساسية فى القيام بما هو مفترض منها، وتكاد هذه التحفة الفنية المتألقة أن تترنح وتتهاوى بسبب كثرة ما بها من أخطاء، عندها – فقط – يتم استدعاء من يستطيع منع هذه الكارثة من الوقوع.

المستقبل والمتوحد

لكل هذا فإن شخصية "الجنرال المنقذ" تكون بها من الميزات ما يجعلها تستطيع التعامل مع والسيطرة على المحترفين Professionals الذين يمتهنون مختلف المجالات سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية، ومن مختلف الطبقات سواء كانوا من النبلاء أم العامة كذلك فإنها تستطيع رؤية الحلول التى يعجز عنها الآخرون فلعلنا جميعاً قد لاحظنا تلك الشخصيات الفريدة التى تبزغ بيننا بين الحين والآخر فى المجالات المالية ولعل من بيننا من يعرف "اقتصاديا فريدا" ذا موهبة عجيبة، قرر أن يشترى عندما كان الجميع يبيعون، أو يبيع عندما كان الجميع يشترون وكان قراره فى الحالتين أكثر صواباً من قرارات الآخرين وهو ما يمكننا من إضافة صفة جديدة مشتركة لدى "الجنرال المنقذ".

أنا أقترح هنا أن "الجنرال المنقذ" يتصف بـ "القدرة على المضى فى طريق مخالف لآراء الجميع "Contrarianism" وهو بهذا يبرز موهبة "الاقتصادى الفريد" عندما خالف الجميع واشترى بدلاً من أن يبيع أو العكس فإنما كان حر الإدارة، لأنه يتصرف فى أمواله أما "الجنرال المنقذ" فيجب أن يكون لديه موهبة إضافية أخرى أنا هنا أتكلم عن موهبة إقناع الآخرين بـ "الطريق المخالف" الذى يكون من الواجب عليهم –جميعاً– المضى فيه من أجل الخروج من محنتهم المشتركة فلا يكفى فى هذا الصدد أن يكون "الجنرال المنقذ" على علم بـ "الطريقة السلمية" ("الطريق المخالف" لآراء الغالبية العظمى من القادة التى تسمح لشعبه بالخروج من محنتهم وإنما يجب عليه – أيضا – أن تكون لديه المواهب التى تمكنه من التعامل مع المحترفين فى مختلف المجالات ومن مختلف الطبقات ولعله من المناسب فى هذا الخصوص ذكر ما قاله معاوية بن أبى سفيان.

"لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت فلو جذبوا أرخيت ولو أرخوا شددت" وكيف أن ثميستوكليز عندما هدده القائد الإسبرطى "يورى بيداس" بالضرب كان رده هو: "اضربنى.. لكن أصغ لما أقول".

إن شخصية "الجنرال المنقذ" داخل نفسية ثميستوكليز هى التى سمحت له بأن يدرك مدى تأصل الرغبة فى الهيمنة والسيطرة داخل نفسية هذه النوعية من القواد ("يورى‌بيداس" وأمثاله) ومعرفة الطريقة المثلى للتعامل معهم لم يكن ثميستوكليز ضعيف الشخصية أو عاجزاً عن أن يرد له الصاع صاعين بالقول والفعل لكنه تمالك أعصابه

وكان على إستعداد للتضحية بكل شيء فى مقابل إنقاذ الوطن الذى يحبه والأرض التى يعشقها.. وحتى لو تطلب هذا التضحية بكرامته أمام هذا المغرور الذى يهدده بالضرب.

وهذا يقودها إلى صفة ثالثة تميز "الجنرال المنقذ" ألا وهى الإصرار والعزيمة وقوة الإرادة ومرة أخرى فإن ثميستوكليز كان على استعداد لأن يتحمل الإهانة من أجل أن يضم الجميع إلى صفه ويوحدهم من أجل اتخاذ "الطريق المخالف" لآراء الغالبية العظمى.. ذلك الطريق الذى سيخلصهم جميعاً من محنتهم.

يلزم للصفات الثلاث السابقة صفة رابعة تكملها وتجعلها أكثر فاعلية أنا هنا أتكلم عن "الثقة بالنفس" فعندما يتبع "الجنرال المنقذ" استراتيجيات غير واضحة أو يضطر لاستخدام تقنيات غير مؤكدة المفعول فإن الإصرار والعزيمة وقوة الإرادة –عندما يكون الهدف واضحاً – هم الذين يبقونه على المسار السليم الذى يؤدى إلى نجاة الأمة من محنتها لكن "الجنرال المنقذ" هى التى تؤكد له مدى صواب قرارته رغم مخالفتها لآراء الغالبية العظمى.

والآن يجب أن نسأل أنفسنا بكل موضوعية لماذا قامت ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م.. الأرقام تقول أن أعداد كبيرة من الشباب قد اتجهت إلى الإلحاد بعد أن فقدت الثقة فى هؤلاء الذين ظهروا فى المجتمع على أنهم رجال الله وحراس عقيدته.. وتفاقم الأمر خلال فترة حكم الإخوان بسبب كثرة التجاوزات التى حدثت منهم ومن بعض رجال الدين حيث حاولوا فرض التشدد والمغالاة على الشعب المصرى المعروف بوسطيته واعتداله.. وتعايشه مع بعضه البعض بلا أدنى حساسية.

ويبدو الجنرال المنقذ مثل رجل المطافئ عنده القدرة على تحمل ما يرتكبه غيره من أخطار عندما يقود الصراع من أجل إنقاذ الوطن بأكمله.. حيث ينبغى أن تتوفر لديه القدرة على الإحتمال والمقاومة سواء على المستوى الجسمانى والعقلى والحمد لله أن انتخابات رئاسة مصر عام ٢٠١٤م قد شهدت ولأول مرة إجراء الفحوص فى فترة حكم تجريبية..

ومن كل ما سبق يمكننا رؤية أن "الجنرال المنقذ" يرى أن من واجبه التسامى والترفع عن الدخول فى قتال مباشرة مع خصومه وهو لا يفعل هذا عن عجز وإنما ممارسة منه لـ "آخر الحريات الإنسانية" حرية الإنسان فى اختيار قراره بصرف النظر عن الظروف وهو يفعل كل هذا فى نفس الوقت الذى يخطط فيه لهزيمة الخصم إلى درجة تجعله راغباً

فى السلام والتعاون فنحن لا نريد سحق الخصم وفنائه وإنما نريد العيش معه فى سلام وفى ظل ظروف عادلة وهذا ما يفعله مع "خصومه" لأنه قد يأتى الوقت خلال فترة من الفترات المستقبلية الذى نصبح نحن فيه هذا "الخصم".

أما جنرال مثل الجنرال الأمريكى شيرمان فى الحرب الأهلية الأمريكية فإنه قدم إلينا استرتيجية "الأرض المحروقة" فماذا لو اتبع كل طرف مثل هذا التفكير فى التخطيط لإضعاف الروح المعنوية لدى الخصم؟. ماذا يحدث لو أن كل الأطراف لم تقصر صراعها على الخطوط الأمامية وإنما جعلت كل ما لدى الخصم مباحاً ومشروعاً؟! ماذا لو طبق الجميع المثل الغربى القائل بأن: "كل شىء مباح فى الحب والحرب All is Fair in love and war ألا يعتبر هذا أحد التعريفات التى تحدد ماهية الإرهاب؟ ذلك الإرهاب الذى يدعى الغرب أنهم فى حالة حرب معلنة ضده منذ سنوات؟.

التواصل مع الآخرين هو أحد الصفات الأخرى التى تميز "الجنرال المنقذ" وهو فى هذا الخصوص صاحب قدرات فذة على التواصل بمهارة وحرفية تمكنه من الوصول إلى هدفه فكلنا يعلم أن "الجنرال المنقذ" يهدف إلى أكثر من مجرد تحقيق النصر فى معركة أو حرب وبصرف النظر عما إذا كان قتاله هذا خارجياً (ضد "أمة أخرى" فى حرب معلنة) أو داخلياً (ضد "جماعة" داخلية فى حرب غير معلنة) فهو يسعى إلى تنفيذ استراتيجية متكاملة تخرج ببلاده من محنتها وخلال عمليات الشد والجذب هذه يكون من المناسب لنا تذكر شعرة معاوية بن أبى سفيان والحفاظ عليها حتى لا تنقطع وفى هذا الخصوص نرى صلاح الدين الأيوبى ينسحب أكثر من مرة قبل أن يحقق هدفه حتى لا يغضب حلفاؤه أو حتى لا تظن به الجموع من عامة الشعب أنه قد فقد تقواه وإيمانه بمبادئ الإسلام وهو قد فعل هذا برغم قدرته الواضحة على الاستحواذ على كل ما يريده بالقوة أما شيرمان القائد الأمريكى خلال الحرب الأهلية فإنه رفض مصافحة يد وزير الدفاع (رئيسه الأعلى) فى حفل رسمى لأنه انتقد – فيما سبق – طريقته فى التعامل بقسوة مع الزنوج أولئك الزنوج الذين من المفترض أن الحرب قد نشبت فى الأساس لتحريرهم من العبودية!؟

الاستعداد

يختلف "الجنرال المنقذ" كثيراً عن رعاة البقر فى أفلام هوليود والذين يندفع الواحد منهم فى تصرفاته وأفعاله دون روية أو تفكير أما "الجنرال المنقذ" فإنه غالباً ما يكون تلميذاً

نابهاً وذكياً، بل إن كثيرين منهم قاموا بالفعل بتدريس العلوم العسكرية والطرق السلوكية المثلى الواجب اتباعها فى الميدان (مثل الجنرال عبد الفتاح السيسى) وحتى إذا اختفى الواحد منهم عن الأنظار بين الحين والآخر إلا إنه دائماً ما يستغل هذه الفترات الزمنية.

– بانتظام – فى دراسة التقنيات المعاصرة والاستراتيجيات التى يتم إتباعها فى الحروب والصراعات التى تدور من حوله وخلال الفترات التى تتولى فيها القيادة العليا عملياً تكون عقلية "الجنرال المنقذ" دائماً منفتحة ومستعدة لتجربة كل ما يبشر بتحقيق نتائج أفضل حتى إذا كان مخالفاً للتقاليد المتبعة والاستراتيجيات المتعارف عليها ولعل هذا هو السبب فى أن أفكار "الجنرال المنقذ" غالباً ما تظل مهملة ومركونة طالما أن مسار الحرب يسير فى صالحنا ولا يتم الالتفات إليه إلا عندما تسوء الأمور وتصبح الهزيمة قاب قوسين أو أدنى.

أصالة "الجنرال"

إن حديثنا عن الصفات الشخصية لـ "الجنرال المنقذ" مهم ومحورى فهذه الصفات الخاصة هى التى تفصل بينه وبين غيره من القادة العسكريين المنتصرين والسياسيين الناجحين وعلى سبيل المثال فإنه كانت هناك عادة سيئة فى مصر الفرعونية اتبعها كثيرون من ملوك مختلف الأسرات التى حكمت مصر وكلنا يعلم أن حاكم مصر "الفرعون" كان يعتبر فى مصاف الآلهة ولا يقل عنها كثيراً وفى الواقع فإن كثيراً من الآلهة المصرية لم تكن فى حقيقتها إلا بعض قدامى الملوك الذين ارتفعت بهم القصص المختلفة والأساطير إلى مستوى الآلهة وتلخصت هذه العادة السيئة فى أن يقوم الملك الجديد بمحو صورة سلفه (الملك أو الملوك السابقون له) وكل ما يتعلق بإنجازاته وإيجابياته ويقوم بعدها بوضع رسمه واسمه فوق رسم واسم سابقيه أما "الجنرال المنقذ" فإنه يملك قدراً كافياً من الثقة بالنفس يجعله فى غير حاجة لفعل هذا وإذا تذكرنا أن "الجنرال المنقذ" لا يسعى فى الأساس إلى مجد أو غنائم حرب فإننا سنجد توافقاً وانسجاماً فى سلوكياته يجعله يسعى نحو الهدف السامى الموجود فى استراتيجية ويصرف نظره عن الصغائر.

وفى واقع الأمر فإنه من الممكن النظر إلى "الجنرال المنقذ" على أنه باحث اجتماعى يحاول إصلاح ما فى مجتمعه من أخطاء فى السلك والتشبث بالمفاهيم البالية فإن الواحد منهم يتفهم حقيقة المقصود بمصطلح "الشخصية الوطنية المصرية Egyptian National Character" ويعمل من خلال هذا الفهم على توجيه المواطن العادى نحو الصواب وما فيه صالح الوطن ككل.

وبإعتباره أحد القواد الذين يشـاركون فى رسـم مسـتقبل الوطن بطريقة تحترم القانون والميثاق الذى شارك فى وضعه غالبية الشعب فإن "الجنرال المنقذ" يدرك تماماً مدى قدرة عامة الشـعب على الصبر وتحمل ضغوط الحياة ومن خلال هذا يرسم الخطط الملائمة والتى تتناسب مع قدرات شعبه على التحمل وخلال كل هذا يؤكد على العدو المشترك الذى أضر بالبلاد وسـعى إلى تفتيتها فإن تحديد "العدو" ليس فـى الواقع إلا تحديداً للهدف الذى يجب على الجميع أن يسعى لقتاله ومقاومته والصراع ضده حتى النهاية.

وفى هذا الصدد فإن التخلص من العدو ومن شروره لا يجب أن يكون "هدفاً سامياً" فى حد ذاته لأن العدو أو الخصم قد يكون أحد فئات الشـعب التى يجب إصلاحها وتهذيبها والصـبر عليها حتى تتبنى رأى الأغلبية وتعـود إلى صوابها حتى يمكن إعادة إدخالها إلى المجتمـع بنجاح وهذا هـو حالنا فى مصر مع جماعة الإخوان فـلا يجب على "الجنرال المنقذ" السعى للقضاء على أفرادها بل تثقيفهم حتى يصبحوا –مرة أخرى – أعضاء نافعين فى مجتمعهم.

أما "الهدف السامى" فهو هدف يتم التخطيط له من خلال استراتيجية متكاملة تنهض بالشعب ككل وتنشر الرفاهية والرخاء فى جنبات المجتمع ، استراتيجية ذات أسس سليمة تسمح للمعارضة المدنية الناضجة بالمشاركة فى البناء.

المستعد دائما

منذ اللحظات الأولى التى تسـلم فيها الجنرال السيسـى مهام منصبه وزيراً للدفاع وهو يسـتثمر كل لحظة فى تطوير الجيش نفسـياً ومادياً وعسـكرياً.. كان يشعر أن فترة وجود المجلس العسـكرى على رأس السـلطة قد باعدت إلى حد ما بين الجيش والشـعب على عكس ما ظهر فى ايام ثورة يناير عندما أعلن الجيش انحيازه للشـعب وأحاطت الجماهير بالدبابـات والمدرعات فى ميادين مصر وهـو الأمر الذى جعل مبارك يعجل برحيله ويعلن تخليه عن السلطة وتسليمها إلى الجيش.

كان يدرك أن هذا الجفاء المزيف المصنوع بين الشعب وقواته المسلحة لا ينبغى ان يستمر بحال. وأعطى الجنرال اهتمامه كله لرفع القدرة العسكرية إيماناً منه بأن المهمة الأولى هى حمايـة البلاد داخليـاً وخارجياً وكان يقرأ جيداً خريطة المخاطر التى تحاصر الوطن ويقدم تقاريره إلى رئيس الجمهورية أولاً بأول وفى كلمة ألقاها أثناء مناورة أجريت بالذخيرة الحية للجيش الثالث فى أوائل ديسمبر ٢٠١٣م.

إن الجيش سـوف يظل دوما حاميا لإرادة الشعب المصرى وكان مدير المركز الإسرائيلى قد ألقى محاضرة خلال حكم محمد مرسى قال فيها:

إن التهديدات التقليدية التى كانت تمثلها جيوش العرب قد ذهبت إلى غير رجعة وعلى سبيل المثال فإن الجيش السورى قد فقد – خلال العامين السابقين – ما يزيد على ٥٠٪ من حجمه أما بالنسبة للجيش المصرى المكون من ١٤ فرقة فإنه لا توجد أكثر من ٧ فرق –على الأكثر– فى حالة نشـاط وفاعلية أما باقى فرق الجيش المصرى فقد تآكلت وأصابها الصدأ وهكذا فإن التهديد العربى لأمن إسرائيل قد تبخر تماما وكما تعلمون جميعاً فإن المجتمعات العربية من مصر وسـوريا إلى تونس وليبيا وحتى فى الأردن لسوء الحظ تعانى من تقلصات الوضع السياسى والصراعات الداخلية والتى لا يتوقع أن تكون لها أى نهاية قريبة.

□□□